

موسى عليه السلام يرحل لطلب العلم

اختلف ابن عباس رضي الله عنهما هو والحُرُّ بن قيس الفزاري في صاحب موسى عليه السلام من هو؟ فقال ابن عباس: هو خَضِر. فمر بهما أُبَيُّ بن كعب فدعاه ابن عباس، فقال: إني تماريت أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى الذي سأل السبيل إلى لُقَيْه؛ هل سمعت النبي ﷺ يذكر شأنه؟ قال: نعم سمعت النبي ﷺ يقول: «بينما موسى في ملأ من بني إسرائيل جاءه رجل فقال: هل تعلم أحداً أعلم منك؟ قال موسى: لا. فأوحى الله إلى موسى: بل عبدنا الخضر، فسأل موسى السبيل إليه فجعل الله له الحوت آية. وقيل له: إذا فقدت الحوت فارجع فإنك ستلقاه. وكان يتبع أثر الحوت في البحر. فقال لموسى فتاه: ﴿أَرَأَيْتَ إِذَا أَوْتِنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسِينِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ (١٦) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ فَأَرْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿١٧﴾ فوجدا خضراً فكان من شأنهما الذي قصَّ الله عز وجل في كتابه».

قال الحافظ ابن حجر عند شرحه لهذا الحديث: هذا الباب معقود للترغيب في احتمال المشقة في طلب العلم لأن ما يغتبط به تحمل المشقة فيه، ولأن موسى عليه الصلاة والسلام لم يمنعه بلوغه من السيادة المحلِّ الأعلى من طلب العلم وركوب البر والبحر لأجله؛ وفي الحديث ركوب البحر في طلب العلم بل في طلب الاستكثار منه، ومشروعية حمل الزاد في السفر، ولزوم التواضع في كل حال، وخضوع الكبير لمن يتعلم منه،

ولهذا حرص موسى على الالتقاء بالخضر عليهما السلام وطلب التعلم منه، تعليماً لقومه أن يتأدبوا بأدبه، وتنبهوا لمن زكّى نفسه أن يسلك مسلك التواضع، وفيه فضل الازدیاد من العلم ولو مع المشقة والنصب بالسفر.

وقال الحافظ الخطيب البغدادي في «الرحلة في طلب الحديث» عقب هذا الحديث: قال بعض أهل العلم: إن فيما عاناہ موسى من الدأب والسفر، وصبر عليه من التواضع والخضوع للخضر بعد معاناة قصده مع محلّ موسى من الله عز وجل، وموضعه من كرامته وشرف نُبوّته دلالة على ارتفاع قدر العلم وعلوّ منزلة أهله، وحُسن التواضع لمن يُلتمس منه ويؤخذ عنه؛ ولو ارتفع عن التواضع لمخلوق أحد، بارتفاع درجة سُمُوّ منزلة، لَسَبَقَ إلى ذلك موسى. فلما أظهر الجِدَّ والاجتهاد والانزعاج عن الوطن والحرص على الاستفادة منه، مع الاعتراف بالحاجة إلى أن يصل من العلم إلى ما هو غائب عنه دلّ على أنه ليس في الخلق من يعلو على هذه الحال ولا يكبر عنها.

آيات للتدبر والتفكر

﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْعَانَ أَمْرًا عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالَهَا ﴾

﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَأْسُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ إِلَّا لِهَٰذَا الْحُكْمِ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنَ ظِلْمَتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّيْنٍ أَنْجَلْنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنُكَوِّنَ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظِرْ كَيْفَ نَصَرِفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُوْنَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ ﴾

[سورة الأنعام]

البغدادي وعقد اللؤلؤ

من أخبار المسافرين (١٧)

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي - رحمه الله تعالى - في كتابه «ذيل طبقات الحنابلة» في ترجمة (القاضي أبي بكر محمد بن عبد الباقي البغدادي الأنصاري البزاز) المعروف بقاضي المارستان، الحافظ المعمر، المولود سنة ٤٤٢هـ، والمتوفى سنة ٥٣٥هـ ببغداد رحمه الله تعالى: «قال الشيخ الصالح أبو القاسم الخزاز الصوفي البغدادي: سمعت القاضي أبابكر محمد بن عبد الباقي بن محمد البزاز الأنصاري يقول: كنت مُجاوراً بمكة حرسها الله تعالى، فأصابني يوماً من الأيام جوعٌ شديد، لم أجد شيئاً أَدفع به عني الجوع، فوجدتُ كيساً من إبريسم مشدوداً بشُرابةٍ من إبريسم أيضاً، فأخذته وجئتُ به إلى بيتي، فحللتُهُ فوجدت فيه عقداً من لؤلؤ لم أر مثله.

فخرجتُ فإذا بشيخ يُنادي عليه، ومعه خِرقة فيها خمسمائة دينار، وهو يقول: هذا لمن يرُدُّ علينا الكيسَ الذي فيه اللؤلؤ، فقلتُ: أنا محتاجٌ، وأنا جائعٌ، فأخذ هذا الذهب فأنفَعُ به، وأرُدُّ عليه الكيس.

فقلت له: تعال إليّ، فأخذته، وجئتُ به إلى بيتي، فأعطاني علامة الكيس، وعلامة الشُرابة، وعلامة اللؤلؤ، وعدده، والخيط الذي هو مشدودٌ به، فأخرجته ودفعته إليه، فسلم إليّ خمسمائة دينار، فما أخذتها، وقلتُ: يجبُ عليّ أن أُعيدَهُ إليك، ولا آخذُ له جزاءً، فقال لي: لا بُدَّ أن تأخذَ وألحَّ عليّ كثيراً، فلم أقبل ذلك منه، فتركني ومضى.

وأما ما كان مني، فإني خرجتُ من مكة وركبتُ البحر، فانكسر

المركبُ وغرقَ الناسُ، وهلكتْ أموالهم، وسلِمْتُ أنا على قطعةٍ من المركب، فبقيتُ مُدَّةً في البحر لا أدري أين أذهب؟! فَوَصَلْتُ إلى جزيرةٍ فيها قوم، فقعدتُ في بعض المساجد، فسَمِعُونِي أقرأ، فلم يَبْقَ في تلك الجزيرة أحدٌ إلَّا جاء إليَّ وقال: علِّمني القرآن، فحصلَ لي من أولئك القوم شيءٌ كثيرٌ من المال.

ثم إنني رأيتُ في ذلك المسجد أوراقاً من مصحف، فأخذتها أقرأ فيها، فقالوا لي: تُحسِنُ تكتب؟ فقلت: نعم، فقالوا: علِّمنا الخط، فجاؤوا بأولادهم من الصبيان والشباب فكنتم أعلِّمهم، فحصلَ لي أيضاً من ذلك شيءٌ كثير، فقالوا لي بعد ذلك: عندنا صبيَّةٌ يتيمة، ولها شيءٌ من الدنيا، نريد أن تزوجَ بها، فامتنعتُ، فقالوا: لا بُدَّ، وألزموني فأجبتهُم إلى ذلك. فلما زفوها إليَّ مددتُ عيني أنظر إليها، فوجدتُ ذلك العِقْدَ بعينه معلَّقاً في عُنُقِها، فما كان لي حينئذٍ شغلٌ إلَّا النَّظَرُ إليه، فقالوا: يا شيخ! كَسَرْتَ قَلْبَ هذه اليتيمة من نظركِ إلى هذا العِقْدِ، ولم تنظرِ إليها، فقَصَصْتُ عليهم قصَّةَ العِقْدِ، فصاحوا وصرَّخوا بالتهليل والتكبير، حتى بلغَ إلى جميع أهل الجزيرة، فقلتُ: ما بكم؟ فقالوا: ذلك الشيخُ الذي أخذ منك العِقْدَ أبو هذه الصبيَّةِ، وكان يقول: ما وَجَدْتُ في الدنيا مُسْلِماً كهذا الذي ردَّ عليَّ هذا العِقْدَ، وكان يدعو ويقول: اللهم اجمع بيني وبينه حتى أزوجه بابتني، والآن قد حصلَ، فبقيتُ معها مدة، ورزقتُ منها ولَدَيْنِ. ثم إنها ماتت فورثتُ العِقْدَ أنا وولَدَاي، ثم مات الولدان، فحصلَ العِقْدُ لي، فبعتهُ بمئة ألف دينار، وهذا المالُ الذي تروتهُ معي من بقايا ذلك المال».

يوم القيامة ﴿ في يومٍ كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ [المعارج : ٤] ﴿ يوم يفرُّ
المرء من أخيه ﴿٣٤﴾ وأمه وأبيه ﴿٣٥﴾ وصحبه وبنيه ﴿٣٦﴾ لكل أمرٍ منهم يومئذ شأنٌ يُغنيه ﴿٣٧﴾
[عبس : ٣٤-٣٧].